

الدرس الثالث والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد :

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه التوحيد الذي هو حق الله على العبيد :

باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك وقوله تعالى : {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}

[التوبة: ١٢٨] .

هذه الترجمة العظيمة في كتاب التوحيد عقدها الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى لبيان كمال حرص النبي عليه الصلاة والسلام وعظيم نصحه في بيان التوحيد وحماية حماه ، وسدّ كل ذريعة أو طريق أو سبيل يفضي إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، وذلك أن التوحيد أعظم المطالب وأجل المقاصد على الإطلاق وهو الغاية التي خلُق الخلق لأجلها وأوجدوا لتحقيقها كما قال الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ؛ فبيننا نبينا عليه الصلاة والسلام التوحيد أتم بيان وأوضحه أكمل إيضاح صلوات الله وسلامه عليه ؛ بإقامة البراهين الواضحات والدلائل الساطعات والحجج البينات ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] ، ومن عظيم نصحه عليه الصلاة والسلام وكمال بيانه لهذا المقام مقام التوحيد أنه عليه الصلاة والسلام حمى حماه وسدّ كل ذريعة تفضي إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ)) ، والحنيفية: هي التوحيد ملة إبراهيم الخليل عليه صلوات الله وسلامه ، فُبِعِثْنَا نبينا عليه الصلاة والسلام بالحنيفية السمحة ؛ أمران بُعِثَ بهما صلوات الله وسلامه : الحنيفية ، السمحة . الحنيفية فيها توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له والبراءة من الشرك وأهله فهي تتعلق بالتوحيد ، والسمحة أي في الأوامر والتكالييف والأعمال فهي سمحة في الأعمال .

شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام من أشد الشرائع في أمر التوحيد وما يتعلق به ، وأسمح الشرائع فيما يتعلق بالأعمال ، قد قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرَرُ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ)) ، ولهذا تجد

في النصوص -ومن ذلكم ما سيظهر لنا من خلال هذا الباب العظيم- أنَّ أيَّ أمرٍ يחדش جناب التوحيد أو يخل به أو يُنقصه أو يقدر فيه فإن النبي عليه الصلاة والسلام يغلقه تمام الإغلاق وينهى عنه أشد النهي ؛ صيانةً للتوحيد وحمايةً لحماه . وهذا أمرٌ ظاهر في الأحاديث الكثيرة المروية عنه صلوات الله وسلامه عليه فيما يتعلق بهذا الأمر ، بينما فيما يتعلق بالشرائع والأعمال فهو دينٌ سمح ، دين يسر ، دين لا عنت فيه ولا مشقة على العباد كما مر معنا في الحديث ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ)) .

وهذه الترجمة عقدها رحمه الله تعالى لبيان هذا الأمر ، وإن كان قد مر معنا في الأبواب المتقدمة ولاسيما الأبواب الأخيرة من الشواهد والدلائل على حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسدّه لكل ذريعة تفضي إلى الإشراك بالله إلا أن المصنف رحمه الله تعالى لعظم هذا المقام وجلالة قدره وأهمية بيانه وإيضاحه خصه رحمه الله تعالى بترجمة خاصة بيّن فيها ذلك بسوق بعض الدلائل والشواهد والبراهين على ذلك .

وقوله رحمه الله تعالى ((باب ما جاء)) أي في الأدلة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ((في حماية المصطفى)) أي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المصطفى لأن الله اصطفاه ﴿اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] والاصطفاء هو الاختيار والاجتباء ، فالله عز وجل اصطفى محمداً عليه صلوات الله وسلامه واجتباها فجعله خير عباده وأفضل رسله صلى الله عليه وسلم ، وهو خليل الرحمن وكليم الرحمن وخير عباد الله سبحانه وتعالى وأفضل رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال: ((حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد)) وجناب بمعنى جانب . جناب التوحيد: أي مقام التوحيد ومكانته الرفيعة ومنزلته العلية ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام حمى حمى التوحيد ؛ أي أنه بيّن التوحيد وإضافة إلى هذا البيان والإيضاح جاء بأمورٍ الهدف منها أن يسان التوحيد وأن يُحمى من كل أمرٍ يחדشه أو يُخلُّ به ، مثل عندما يُعنى شخص بحديقة يضع فيها أنواع الأشجار والزهور وغير ذلك ثم يضع لها حمى يُقصد منه ألا يوصل إلى تلك الثمار بأي ضرر أو بأي نوع من الأذى ، ولعل هذا المعنى يظهر بشكل أوضح وأظهر في قول نبينا عليه الصلاة والسلام ((أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمًى اللَّهِ مُحَارِمَةٌ)) ، فالنبي عليه الصلاة والسلام بيّن التوحيد وحماه ، جاء بأمورٍ الهدف منها حماية التوحيد. حمايته من ماذا ؟ حمايته من شركٍ ينقصه ، أو بدعةٍ تقدح فيه ، أو معصيةٍ تُنقصه ؛ فجاء عليه الصلاة والسلام بالبيان البيّن والإيضاح الكامل لهذا المقام معذرةً إلى الله سبحانه وتعالى ونصحاً للعباد .

وقوله رحمه الله تعالى : ((وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك)) ؛ وهذا من عظيم نصحه وكمال حرصه عليه الصلاة والسلام أنَّ كل أمرٍ من الأمور يفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى فإنه نهى عنه وحذّر منه ونهى من قربانه ، كل أمرٍ يؤدي بالعباد كل ذريعة تفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى فإنه عليه الصلاة

والسلام جاء بالنهي عن ذلك ، حتى وإن قال القائل : لم أقصد ، كل أمر يفضي إلى الإشراك بالله فإن النبي عليه الصلاة والسلام جاء بالنهي عنه والمنع من فعله ؛ لماذا ؟ حرصاً على العباد ونصحاً لهم حتى لا يصلوا إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

قال ((باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك وقول الله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾)) ؛ والله ما أجمل استدلال المصنف رحمه الله تعالى على هذه الترجمة بهذه الآية الكريمة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ؛ هذه الآية ماذا فيها ؟ فيها ذكر أوصاف هذا الرسول عليه الصلاة والسلام العظيمة ومناقبه الجليلة وخصاله الرفيعة العلية صلوات الله وسلامه عليه .

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي تعرفونه ، تعرفون نسبه ، تعرفون حسبه ، تعرفون صفاته وأعماله ، تعرفون صدقه وأمانته ، ليس رجلاً بعيداً أو رجلاً غريباً وإنما رجل منكم وفيكم ونشأ بينكم ، تعرفونه تعرفون خصاله تعرفون وفاءه تعرفون أمانته ؛ وهذا من الأمور التي تدفع وتعين على القبول؛ قبول ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ .

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ «عزیز عليه» أي على هذا الرسول «ما عنتم» أي: أن كل أمر يسبب لكم عنتاً أذى ألماً مشقة هلكة فإنه عزيز عليه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ، فهو يأخذ بأمره مأخذاً لا يكون فيه عليهم عنت ولا يكون عليهم فيه مشقة ، بل يأخذهم المأخذ الهين اللين السمع الرفيق ، وهذا من كمال نصحه عليه الصلاة والسلام .

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي في بيان ما فيه مصالحكم الدينية والدنيوية ومنافعكم وما فيه سعادتكم، حريصٌ عليكم أي أشد الحرص ، والحرص يتكون من رغبة عظيمة قائمة بالنفس وعملٍ وجهدٍ يبذله ويقدمه . فالنبي عليه الصلاة والسلام قام في نفسه وقلبه حرص عظيم على أمته سعادة لها ورفعاً وسلاماً ، وتبع هذا الذي قام في نفسه عليه الصلاة والسلام عمل دؤوب وجهد جهيد ودأب عظيم في توجيه أمته إلى ما فيه سعادتها وفلاحها في الدنيا والآخرة .

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي بالمؤمنين به صلوات الله وسلامه عليه وبما جاء به صلى الله عليه وسلم رؤوف رحيم .

هذه الصفات عندما تقرأها وتتأملها في هذا الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه ؛ أيعقل أن تجتمع فيه هذه الصفات ومن بينها ما ذكره الله عنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ثم يترك مقام التوحيد دون أن يحمي حماه؟! وأيضاً ما يتعلق

بالشرك دون أن يسد الذرائع المفضية إليه؟! أيكون ذلكم من الحريص أشد الحرص على أمته صلوات الله وسلامه عليه؟! قال بعض السلف قديماً : محال أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بيّن للأمة آداب قضاء الحاجة أتم البيان ولم يبين التوحيد . الآن عندما ننظر فيما يتعلق بقضاء الحاجة آداب عظيمة جداً تُشعرك أيها المسلم بكمال هذا الدين الذي من الله عليك به ، آداب رفيعة وعالية جداً لا يجدها أي شخص في غير الإسلام ؛ كيف يقضي الإنسان حاجته ، كيف يجلس ، كيف يزيل وينظف الخارج من السبيلين ، ماذا يستعمل من أدوات في التنظيف ، كيف يستتر ، كيف يستبرئ ، آداب رفيعة وعالية جداً بيّنها عليه الصلاة والسلام بياناً دقيقاً مفصلاً وهذا من كمال نصحه ؛ إذا كان ما يتعلق بآداب قضاء الحاجة بيّن وفصّل هذا البيان البين والتفصيل الواضح أيعقل أن يبين ما يتعلق بآداب قضاء الحاجة بهذا التفصيل الواسع البيّن ولا يبين ما يتعلق بالتوحيد الذي هو أهم المطالب وأعظم المقاصد؟! لا يعقل أبداً ومحال أن يكون ذلك .

فإذاً يدخل تحت قوله تعالى ﴿ حَرِصْ عَلَيْكُمْ ﴾ ما يتعلق بأمر التوحيد دخولاً أولاً ؛ لماذا ؟ لأن التوحيد أعظم المطالب وأجل المقاصد وأولى الأمور بأن يُحرص عليه وأن يُعتنى به وهو زبدة دعوة النبيين وخلاصة رسالتهم ؛ أول ما يبدؤون أقوامهم به صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . إذاً هذه الأوصاف وبخاصة قول الله تعالى ﴿ حَرِصْ عَلَيْكُمْ ﴾ تدل أوضح دلالة أن النبي عليه الصلاة والسلام بيّن التوحيد وحى حماه وسدّ كل ذريعة تفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبري عيداً ، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » رواه أبو داود بإسناد حسن ورواته ثقات .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث العظيم حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)) ؛ ما معنى ذلك ؟ كيف يصبح الرجل قد جعل بيته من القبور أو شبيهاً بالقبور ؟ الحديث يحتمل معنيين كلاهما داخل في معناه ويتناولهما الحديث بعمومه :

■ ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)) فيه دلالة على أنه لا يجوز دفن الميت في البيت ، البيت ليس مكاناً لدفن الأموات ، وفيما يتعلق بنبينا عليه الصلاة والسلام دُفن في بيت عائشة وهذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه لأنه قد صح عنه أن الأنبياء يُدفنون حيث ماتوا ، هذا أمرٌ خاص بالأنبياء ، الأنبياء يدفنون حيث ماتوا ، وقد مات عليه الصلاة والسلام في حجرة عائشة بين سحرها ونحرها ؛ فدُفن حيث مات لهذا الحديث الثابت عنه

صلوات الله وسلامه عليه . أما غير النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجوز أن يدفن في البيت لقوله عليه الصلاة والسلام ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)) . ودُفِنَ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أيضاً هذا من الخصائص ، فهما صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحياة وفي الممات رضي الله عنهما وأرضاها ، أكرمهما الله عز وجل بالصحبة والملازمة للرسول عليه الصلاة والسلام والنصرة العظيمة له حال حياته عليه الصلاة والسلام ، ثم أكرمهما الله عز وجل بهذه الكرامة العظيمة وهي مرافقتهما له عليه الصلاة والسلام دُفِنَا معه في حجرة عائشة رضي الله عنها وأرضاها .

■ الأمر الثاني مما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)): أي لا تجعلوها مثل القبور ، القبور ليست مكان للصلاة ، وليست مكاناً لتحري العباد ، وليست مكاناً لقراءة القرآن ، ليست مكاناً لذلك ، فمن هجر العباد في بيته وهجر الصلاة في بيته وهجر قراءة القرآن في بيته أصبح بيته مثل القبور ، لأن القبور ليست مكان للذكر وتلاوة القرآن والصلوات ، ليست مكاناً لذلك ، فإذا عطلَّ الصلاة في بيته شبه بيته بالمقابر . ومما يوضح ذلك ما جاء في الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذَكَّرُ اللَّهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذَكَّرُ اللَّهُ فِيهِ ؛ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ)) البيت الذي لا يُذكر فيه الله سبحانه وتعالى مثله مثل الميت .

إذاً الحديث في قوله عليه الصلاة والسلام ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)) أي اعتنوا في بيوتكم بالصلاة ، ولهذا صلاة الرجل في بيته أفضل إلا المكتوبة ؛ أي الصلوات الخمس صلاتها في المساجد أفضل وهي واجبة على الرجال ، يجب أن يؤدوا الصلوات الخمس في المساجد بيوت الله التي ينادى فيها للصلاة «حي على الصلاة حي على الفلاح» ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٦-٣٧] الرجال في الصلوات الخمس أماكنهم المساجد .

الرجال إذا أردنا أن نعرف يا إخوان الرجولة ، وكثيراً ما يتحدث الناس عن الرجولة وبعضهم إذا أراد أن يتحدث عن الرجولة يمسك الشارب ويشده إلى أعلى ويفتله ويظن أن الرجولة قتل الشوارب ، مع أن السنة جاءت بقص الشوارب ، الرجولة بأبهى صورها وأتم حللها أن يكون أوقات الصلوات الخمس لا يُفتقد في المساجد ، لأن الله قال : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ﴾ ، إذا كان لا يصلي مع الرجال في المساجد ! وإلا إذا جاء وقت الصلاة مع زوجته يصلي في البيت ومع بنته ومع أخته ومع خالته وعمته والرجال في المساجد ؛ هذا إذا كان يصلي في بيته أين من هذا الوصف!! ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ لماذا؟ ﴿وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ﴾ الله هكذا يقول جل في علاه ، فالرجولة أن يكون الرجل أوقات الصلوات الخمس يأتي إلى المساجد بعناية شديدة واهتمام بالغ ، ولو علم الناس ما في أداء

الصلاة جماعةً في بيوت الله لأتوا إليها ولو حبواً على الركب ، لكن هذا التفريط وهذه الإضاعة من كثير من الناس سببها الجهل العظيم بمكانة الصلاة ومنزلتها من الدين ، ما عرفوا قيمة الصلاة ولا عرفوا أيضاً قيمة أدائها في المساجد بيوت الله تبارك وتعالى ، قال : ((صلاة الرجل في بيته أفضل إلا المكتوبة)) المكتوبة يجب أن يصلها في المساجد ، أما النوافل يصلي في البيت حتى يكون البيت بيتاً حياً ليس بيتاً ميتاً ؛ تُصلى فيه النوافل ، يقرأ فيه القرآن ، يُذكر فيه الله سبحانه وتعالى ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)) البيت الذي ليس فيه قرآن وليس فيه صلاة وليس فيه ذكر لله عز وجل أصبح شبيهاً بالمقابر .

قال عليه الصلاة والسلام ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)) ، جاء في الصحيحين عن نبينا عليه الصلاة والسلام وهو أيضاً مما يوضح هذا المعنى ويقرره أنه قال : ((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ، ولا تتخذوها قبوراً)) ، وجاء في صحيح مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة)) ؛ إذاً هذا يدل على الحث على قراءة القرآن في البيت ، والحث على الصلاة في البيت ، والترغيب في ذلك حتى يكون البيت بيتاً حياً وليس بيتاً ميتاً ، لأن البيت الذي لا يُذكر فيه الله سبحانه وتعالى مثله مثل الأموات ، والأموات أماكنهم المقابر . فهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)).

((ولا تجعلوا قبوري عيداً)) وهذا موضع الشاهد من هذا الحديث للترجمة ، قال ((ولا تجعلوا قبوري عيداً)) هذا أمرٌ نهي عنه عليه الصلاة والسلام ، نهي عن فعله قال ((لا تجعلوا قبوري عيداً)) ؛ و«عيداً» هذه الكلمة مأخوذة من المعاودة والاعتیاد . أرايتم لو أن شخصاً ألزم نفسه أنه مثلاً كل ليلة بعد صلاة العشاء يزور القبر ، أو كل جمعة ، أو في بداية كل شهر أو نحو ذلك ؛ هذا الالتزام وهذا الترتيب وهذه المعاودة والاعتیاد نهي عنه النبي عليه الصلاة والسلام لأن مثل هذه المعاودة والاعتیاد واتخاذ قبره عليه الصلاة والسلام عيداً يفضي إلى الغلو فيه ، وعرفنا أن من نصحه عليه الصلاة والسلام وكمال حرصه أنه سدَّ كل طريق يفضي بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، وعرفنا في الترجمة الماضية أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تُعبد ، فنهي عليه الصلاة والسلام أن يُجعل قبره عيداً ، قال : ((ولا تجعلوا قبوري عيداً)) .

وإذا كان الغرض من هذه المعاودة والتكرار وترتيب الوقت الذي يلتزمه الإنسان ويدوم عليه إذا كان الغرض من ذلك الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم والسلام عليه ؛ ففي تنمة الحديث يقول عليه الصلاة والسلام : ((وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)) ؛ إذا كان الغرض من المعاودة والتكرار واعتیاد المجيء وتخصيص الأوقات إذا كان المراد من ذلك الصلاة والسلام على رسول الله عليه الصلاة والسلام فأجاب عن ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله ((وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)) ؛ يعني لو كنت هنا في المسجد أو في أي مكان من المدينة أو في أي مكان من الدنيا صلِّ وسلِّم على رسول الله عليه الصلاة والسلام في أي ساعة من ليل أو نهار

والملائكة تبليغ ، لأن معنى قوله ((تبليغي)) دل حديث آخر صح عن نبينا عليه الصلاة والسلام أن ذلك بواسطة الملائكة ، ((فإن صلاتكم تبليغي)) أي بواسطة الملائكة كما جاء في حديث ابن مسعود وهو في السنن - سنن النسائي ومستدرك الحاكم وغيرهما- أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ)) .

والآن تجد في بعض المناطق إذا أراد الحاج أن يسافر إلى المدينة يمسك به أهل البلد ويترجّونه "ولا تنسى واكتب اسمي عندك أرجوك أنت تعرف الصداقة التي بيننا والأخوة سلّم لي على الرسول عليه الصلاة والسلام أرجوك لا تنسى" ويؤكد عليه ، وبعض الزوار يجد أنه فعلاً حِمْلَ حمالة كبيرة جداً ، كل ما سلّم عليه شخص قال له يا أخي سلّم لي على الرسول عليه الصلاة والسلام ، بلّغ النبي عليه الصلاة والسلام السلام . طيب الآن استعد هذا الزائر أن يبلغ ؛ بلغ فلان وحفظ اسمه والثاني وحفظ اسمه والثالث وكثرت الأسماء وجاء أيضاً بالأوراق وبدأ يكتب الأسماء حتى يبلغ ، ولما يصل إلى القبر يزاحم الناس ويقف وقفة طويلة ومنهي عن ذلك حتى يقرأ الأسماء "ويسلّم عليك فلان ويسلم عليك فلان إلى آخره!" في أمور لم تُشرع وما دل عليها الدليل ، وبعضهم يأتي يقول يا شيخ عندي قائمة بالأسماء وضاعت ، بلغوني وطلبوا مني أبلغ السلام والقائمة ضاعت فقدتها؟ وسأل بعضهم عن ذلك كيف الطريقة وأسمائهم ضاعت مني الآن ؟ فيما يتعلق بالملائكة ما في أرجوك ولو سمحت ولا تنسى واكتب اسمي كل هذا ما له حاجة إطلاقاً ، صلّ وسلّم على رسول الله عليه الصلاة والسلام في أي ساعة من ليل أو نهار في أي مكان في الدنيا والملائكة بضمان وأمان ووفاء تبليغ النبي عليه الصلاة والسلام السلام ، ما يحتاج تنتظر أحد من الناس يسافر أو تترجاه أو غير ذلك .

ولهذا مثل هذا العمل لا أصل له في الهدى وفي المأثور عن النبي عليه الصلاة والسلام وعن الصحابة الكرام . وإذا طُلب من إنسان أن يبلغ النبي عليه الصلاة والسلام السلام يقول لمن طلب منه : أكثر يا أخي من الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم كل وقت وحين والملائكة تبليغ ، ويورد له هذا الحديث الذي معنا في هذه الترجمة ((وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبليغي حيث كنتم)) ، مثل ما جاء عن بعض السلف قال لرجل في المدينة: «ما أنت ومن بالأندلس إلا سوء» ، كل واحد منكم يقول اللهم صلّ وسلّم على رسول الله الملائكة تبليغ؛ هنا في المدينة أو في أي بلد من الدنيا الملائكة تبليغ السلام .

فإذا كان هدف الزائر الذي اتخذ القبر عيداً الصلاة والسلام على رسول الله فجاء الجواب في الحديث قال : ((وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبليغي حيث كنتم)) أي في أي مكان تكونون فيه فإن الصلاة تبليغ النبي عليه الصلاة والسلام ؛ أي تبليغه إياها الملائكة الكرام .

قال :

وعن علي بن الحسين رضي الله عنه : أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو ؛ فنهاه وقال : ألا أحدثك حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تتخذوا قبوري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلُّوا عليَّ فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم » رواه في المختارة .

ثم ختم رحمه الله تعالى هذه الترجمة بهذا الحديث عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، فهو يروي عن الحسين والده رضي الله عنه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وتأمل الإسناد الذي ذكره المصنف كله من آل البيت ، وهنا ينبغي التنبيه لذلك ؛ مخرج الحديث من آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام وهم أقرب الناس إليه عليه الصلاة والسلام نسباً ، وأيضاً أقرب بيتاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فاجتمع قرب النسب وقرب البيت ، وتأتي هذه الوصية العظيمة التي مخرجها من آل بيت النبي الكريم عليه الصلاة والسلام . والراوي هنا هو علي بن الحسين والمعروف بزين العابدين لأنه عُرف بالعبادة ؛ وهو من خيار التابعين رحمه الله تعالى، عُرف بالعبادة والصلاة والخير رحمه الله تعالى ، وأيضاً عُرف رحمه الله بالنصح مثل ما نرى في هذا الحديث فيما يتعلق بمقام التوحيد الذي هو أعلى المقامات .

وتعلمون أن بعض الناس أصيبوا بمصيبة وابتُلوا ببليّة عظيمة جرّت عليهم ويلات ونكبات وأوقعتهم في شرور وبلبات؛ حيث غلو في آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام غلوّاً أفضى بهم إلى إعطائهم شيئاً من خصائص الله وأوصافه سبحانه وتعالى؛ وهذا أمر لا يرضاه هؤلاء الأئمة الأعلام الأكابر، مثل زين العابدين ووالده الحسين وجده علي بن أبي طالب لا يرضون ذلك أبداً . ولهذا أورد الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء وأورد ذلكم غيره أن علي بن الحسين هذا قال : «يا أهل العراق - وجاء في بعض الروايات يا أيها الناس - يخاطب أقبوا عرف منهم الغلو في آل البيت قال : يا أهل العراق أحبونا حب الإسلام ولا تحبونا حب الأصنام» انظر الكلام الجميل ؛ حب الأصنام معروف ، لأن حب الأصنام: تعلّق وتذلّل وخضوع وصرف للعبادة وتوجّه إلى تلك الأصنام ، فقال رحمه الله تعالى «أحبونا حب الإسلام»: أي الحب الذي شُرع في الإسلام ودل عليه الكتاب وسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، أما الحب الذي فيه الغلو فهو ينهى عنه ، وجميع الأئمة الأكابر من آل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ينهون عن ذلك ؛ ولهذا أهل السنة ميّزهم الله وأكرمهم وشرفهم بأنهم يحبون آل البيت مثل ما وصف هذا الإمام رحمه الله تعالى حب الإسلام ، أما حب الأصنام هذا منهى عنه ، هذا هو الضلال ؛ عندما يُحب الرجل حباً قائم على الغلو وإعطاء هذا المحبوب من الخصائص والصفات ما لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى هذا باطل ، وأئمة آل البيت من أوائل من ينهون عن ذلك ويحدّرون منه ، يقول رحمه الله تعالى «أحبونا حب

الإسلام ولا تحبونا حب الأصنام ؛ فما زال بنا حبكم - أي القائم على الغلو - حتى صار علينا شيئاً » يقول ذلك تحذيراً ونهيّاً عن ذلك . فإذا ثمة نوعان من الحب أشار إليهما رحمه الله :

الأول : حب الإسلام وقد جاء في الحديث : ((أَوْثَقُ عُرَى الْإِسْلَامِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ)) ، وفي الحديث : ((مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ)) فهذا حب يحبه الله ويرضاه ويثيب عليه جل في علاه .

النوع الثاني من الحب : حب الأصنام الذي هو حب الغلو في المحبوب وإعطائه من الخصائص أو الحقوق ما ليس إلا لله تبارك وتعالى ؛ فهذا باطل ولا يجوز ، ومن ابتلي بحب آل البيت حب الأصنام الذي وصفه زينه العابدين بهذا الوصف ؛ من لا يجده يوافقه على هذا الحب لآل البيت بماذا يصفه ؟ يقول لا يحب آل البيت ، لماذا ؟ لأنه لم يفهم الحب إلا بهذه الطريقة .

وأهل السنة يحبون آل البيت حباً عظيماً ، ومنهم هذا الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، الرجل من يقرأ كتبه ومصنفاته وسيرته وأخباره يعرف المحبة العظيمة التي قامت عنده وتمكّنت منه حباً لآل بيت النبي صلوات الله وسلامه عليه ، ومن الدلائل والشواهد على ذلك أن أولاده رحمه الله جلّهم إن لم يكن كلهم سماهم بآل البيت ، ومن يقرأ كتبه يجد فيها الثناء العاطر وبيان المكانة والمنزلة لآل بيت النبي ، هذا حب الإسلام الذي عليه أئمة السنة وأهل الفضل رحمهم الله ورضي عنهم .

يقول : ((عن علي بن الحسين رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم)) ؛ فرجة : أي كوة أو فتحة في الجدار فيأتي عند تلك الكوة أو الفرجة ((فيدخل فيها فيدعو)) يدعو من؟ يدعو الله سبحانه وتعالى لكن يتحرى المكان .

((فنهاه - نهاه علي ابن الحسين رحمه الله - وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي)) أبي : أي الحسين ، وجده : أي علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ((عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تتخذوا قبوري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، وصلُّوا علي فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم »)) .

((لا تتخذوا قبوري عيداً)) انظر كيف استدل بالحديث على هذا الرجل الذي يقصد القبر ويتحراه ويتحرى الدعاء فنهاه عن ذلك واحتج عليه بالحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لا تتخذوا قبوري عيداً)) لماذا ؟ لأن هذا يفضي إلى الغلو ، عندما يُتخذ القبر عيداً بالمعاودة والتكرار والملازمة والمواظبة ثم يضيف إلى ذلك تحري الدعاء مثل ما صنع هذا الرجل ونحو ذلك فإنه يفضي بالإنسان إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى ، والنبي عليه الصلاة والسلام حمى حمى التوحيد وسدّ كل ذريعة تفضي بالناس إلى الإشراف بالله . إذاً قوله ((لا تتخذوا قبوري عيداً)) نهي عن اتخاذ قبره صلى الله عليه وسلم عيداً لأن ذلك ذريعة من الذرائع التي تفضي بفاعل ذلك إلى الإشراف بالله سبحانه وتعالى .

((ولا بيوتكم قبورا)) أي ولا تتخذوا بيوتكم قبورا ، بمعنى صلوا في بيوتكم ، اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ، اقرؤوا القرآن في بيوتكم ، أكثروا من ذكر الله في بيوتكم ، لا تجعلوا بيوتكم قبورا .

((وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم)) أي أينما كنتم في هذه الأرض فإن تسليمكم يبلغني ، أي تبليغه الملائكة الذين وكل الله سبحانه وتعالى إليهم ذلك .

قال رحمه الله تعالى : ((رواه في المختارة)) أي رواه الضياء المقدسي في كتابه المختارة .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية براءة .

قال رحمه الله : فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية براءة أي قول الله تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ، وتفسيرها مر معنا شيء من الكلام عليه ، وفيها وصف الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بتلك الصفات العظيمة التي من بينها وصفه بأنه حريص على الناس بالبيان والإيضاح وإقامة الأدلة والبراهين ، وعرفنا أن التوحيد الذي هو أعظم المطالب وأجل المقاصد يدخل في هذه الآية أو في هذا المعنى دخولاً أولياً لأنه أعظم مطلب وأجل مقصد . ومما يبين هذا المعنى ما جاء في الآية التي تلي هذه الآية وبها حُتِمت سورة براءة قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ أي بعد هذا الحرص وهذا النصح وهذا البيان وهذا الإيضاح إن تولى من تولى وأعرض من أعرض فقل حسي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم .

الثانية : إبعاده صلى الله عليه وسلم أمته عن هذا الحمى غاية البعد .

لأنه عليه الصلاة والسلام حمى حمى التوحيد وأبعد أمته عن كل أمرٍ يخلُ بالتوحيد من ناقضٍ أو قاذٍ أو ناقص .

الثالثة : ذكر حرصه صلى الله عليه وسلم علينا ورأفته ورحمته .

لأن الله عز وجل قال : ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

الرابعة : نهيه صلى الله عليه وسلم عن زيارة قبره على وجهٍ مخصوص ؛ مع أن زيارته من أفضل الأعمال .

الرابعة أي من المسائل المستفادة في هذه الترجمة : نهي صلى الله عليه وسلم عن زيارة قبره على وجه مخصوص ؛ ليس فيه نهي عن زيارة قبره مطلقاً وإنما فيه نهي عن زيارة قبره عليه الصلاة والسلام على وجه مخصوص ، ما هو هذا الوجه ؟ قال : ((لا تتخذوا قبري عيداً)) والعيد عرفنا معناه أي من الاعتیاد والمعاودة ، وهذا هو المعنى المراد بالحديث.

بعض أهل المفاهيم المنحرفة قلبوا المعنى تماماً وعكسوه رأساً على عقب قالوا : إن النبي عليه الصلاة والسلام قال ((لا تتخذوا قبري عيداً)) والعيد مرتين في السنة فأكثرُوا من الزيارة ، لا تجعلوه مثل العبد مرتين في السنة ، لا ؛ أكثرُوا من الزيارة مثلاً كل يوم أو كل أسبوع ؛ فعكسوا الحديث وأساءوا الفهم !! ولا يمكن أن يكون هذا الناصح الأمين عليه الصلاة والسلام الذي قصد بهذا البيان النصح لأمته أن يحثهم على الإكثار من الزيارة قائلاً ((لا تتخذوا قبري عيداً)) ، هذا لا يتفق مع كمال النصح وعظيم الحرص . فقلوه عليه الصلاة والسلام ((لا تتخذوا قبري عيداً)) أي من المعاودة والاعتیاد بتخصيص وقت والتزام ، إما بعُود اليوم أو بعُود الأسبوع أو بعُود الشهر يضع الإنسان له برنامج يلتزمه هذا كله من الاعتیاد الذي يفضي بالإنسان إلى الغلو . قال ((ولا تتخذوا قبري عيداً)) إذاً في هذا من الفوائد : نهي عن زيارة قبره على وجه مخصوص ؛ مع أن زيارته من أفضل الأعمال ، ليس مراده من أفضل الأعمال مطلقاً ، لكن قبره عليه الصلاة والسلام أفضل القبور ، فإذا كان نهي عن زيارة قبره على وجه مخصوص ((لا تتخذوا قبري عيداً)) وقبره أفضل قبر فأيضاً سائر القبور الأمر فيها كذلك ؛ لا يجوز أن يُتخذ شيء من القبور عيداً يعتاده الإنسان ويوقّت له الأوقات ويضع له برنامجاً يحدّد رأس الشهر أو الأسبوع أو نحو ذلك ؛ فهذا كله مما يتناوله النهي الذي جاء في هذا الحديث .

الخامسة : نهي صلى الله عليه وسلم عن الإكثار من الزيارة .

وهذا هو الفهم الصحيح لقوله ((لا تجعلوا قبري عيدي)) ؛ نهي عن الإكثار من الزيارة ، لأن الإكثار من الزيارة فيه الاعتیاد والمعاودة والتكرار وهذا هو معنى قوله ((لا تجعلوا قبري عيداً)) ، ففيه نهي صلى الله عليه وسلم عن الإكثار من الزيارة؛ لماذا ؟ لماذا نهي صلى الله عليه وسلم عن هذا الإكثار من الزيارة ؟ حتى لا يفضي الإنسان هذا الأمر إلى الغلو في الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

السادسة : حثه صلى الله عليه وسلم على النافلة في البيت .

وهذا مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم ((لا تجعلوا بيوتكم قبوراً)) ففيه الحث كما ذكر المصنف رحمه الله تعالى على النافلة في البيت ، وذلك لأن الصحابة متقرر عندهم أن القبور ليست مكاناً للصلاة ، فلما قال لهم ((لا

تجعلوا بيوتكم قبوراً)) عرفوا أن المراد : صلوا في بيوتكم ، اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ، وهذا المعنى عرفنا أنه جاء مصرحاً به في الحديث الذي في الصحيحين قال : ((اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً)) .

السابعة : أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة .

أنه لا يصلى في المقبرة هذا أمر متقرر عند الصحابة ، ولهذا لما قال لهم ((لا تتخذوا بيوتكم قبوراً)) عرفوا أن هذا يعني الحث على الصلاة في البيت وقراءة القرآن وذكر الله حتى لا تكون شبيهة بالقبور التي ليست مكاناً للصلاة ، فالصحابة رضي الله عنهم متقرر عندهم أن القبور ليست مكاناً للصلاة ، ومما جاء في الروايات في هذا الباب أن أنس رضي الله عنه كان يصلي وأمامه قبر ما رآه ما انتبه له فأخذ يهتف به عمر رضي الله عنه يقول «يا أنس القبر يا أنس القبر» فكان أنس شرع في الصلاة ولا انتبه أن أمامه قبر ، وصح في الحديث ((لا تصلوا إلى القبور)) كل ذلك سداً للذرائع التي تفضي بالناس إلى الإشراف بالله سبحانه وتعالى .

الثامنة : تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بُعد ، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب .

يعني من أراد القرب من قبر النبي عليه الصلاة والسلام واتخذ عيدا من أجل الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن يتوهم ذلك قال له النبي عليه الصلاة والسلام ((صلوا علي فإن صلاتكم تبلغني)) . قال رحمه الله تعالى (الثامنة : تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه صلى الله عليه وسلم يبلغه وإن بُعد) أي وإن كانت المسافة بعيدة في أقصى الدنيا فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب ، يعني من أراد أن يتخذ القبر عيدا من أجل الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له كما دل هذا الحديث "ما أنت ومن بالأندلس إلا سواء" فأكثر من الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم كل وقت وحين دون حاجة إلى أن تتخذ القبر عيدا بالمعاودة والتكرار ، بل أكثر من الصلاة والسلام على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كل وقت وحين فإن صلاتك تبلغه صلى الله عليه وسلم حيث كنت .

التاسعة : كونه صلى الله عليه وسلم في البرزخ تُعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه .

التاسعة : كونه صلى الله عليه وسلم البرزخ الذي هو القبر ، والقبر يسمى برزخ لأنه مرحلة تأتي بين الدنيا والآخرة «كونه صلى الله عليه وسلم في البرزخ تُعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه» لأن الحديث واضح في ذلك أن الصلاة تبلغه صلى الله عليه وسلم من المصلين والمسلمين عليه صلى الله عليه وسلم حيثما كانوا ، تبلغ تلك الصلاة والسلام الملائكة الذين وكل الله إليهم هذا الأمر كما مر معنا في الحديث المتقدم ((إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام)) ؛ اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .